

الفصل الرابع

الوحي، العلم

في وحدته في غار حراء، ظل محمد ﷺ يبحث عن الحقيقة والمعنى. ثم ظهر له الملك جبريل فجأة وقال له: «اقرأ!» أجاب محمد ﷺ: «ما أنا بقارئ!». فغطه الملك حتى بلغ منه الجهد ثم قال له ثانية: «اقرأ!». فكرر محمد ﷺ إجابته: «ما أنا بقارئ!». فغطه الملك ثانية حتى بلغ منه الجهد وأعاد الأمر للمرة الثالثة: «اقرأ!». وجاء الرد ذاته: «ما أنا بقارئ!». فتلا الملك وهو لا يزال ممسكاً به: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)﴾ (١).

كانت تلك الكلمات الآيات الأولى للقرآن التي أوحى بها للنبي ﷺ بواسطة الملك جبريل، وقد وصف محمد ﷺ، ثم زوجته عائشة - رضي الله عنها - بعد مدة طويلة، وبعض الصحابة والمحدثين حتى ابن إسحق وابن هشام، هذا الحدث وتلك الأحداث التي تلت بكلمات متماثلة بصفة عامة، رغم وجود بعض الاختلافات بشأن بعض الوقائع (معظمها غير مهم) وتسلسلها التاريخي.

بعد التفوه بتلك الكلمات غاب الملك جبريل عن النظر، مخلفاً محمداً ﷺ بحالة من الاضطراب العميق، كان يشعر بالخوف ولم يكن يدري إن كان قد شاهد رؤيا شيطانية أو أنه كان به مس.

فقرر العودة إلى زوجته، ووصل أخيراً وهو في حالة من الجزع وقال: «زملوني! زملوني!» فغطته خديجة — رضي الله عنها — بعباءة وسألتها عما أصابه، فوصف لها ما حدث وأعرب عن خوفه: «ما هذا الذي حدث لي؟ لقد خشيت على نفسي»⁽²⁾. فطمأنته وهمست قائلة: «هون عليك، إن الله لن يخزيك أبداً، إنك لتصل الرحم وتقول الحق وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق»⁽³⁾.

ورقة بن نوفل

رأت خديجة — رضي الله عنها — أن تسأل ابن عمها، ورقة بن نوفل النصراني، عن رأيه، فذهبت إليه (من غير الواضح ما إذا كانت ذهبت وحدها أو مع النبي ﷺ) وأخبرته بما حدث لمحمد ﷺ⁽⁴⁾. عرف ورقة الدلائل التي كان ينتظرها فأجاب دون تردد: «قدوس! قدوس! والذي نفس ورقة بيده، إنه الناموس الأكبر صديق أسرار الملك الأعلى، الملك الذي يأتي بالوحي المقدس الذي جاء إلى محمد، وهو الذي نزل على موسى. إن محمداً هو حقاً نبي هذه الأمة»⁽⁵⁾.

وبعد فترة، في لقاء مع محمد ﷺ قرب الكعبة أضاف ورقة: «إنهم سيكذبونك وسيئون معاملتك ويخرجونك ويهاجمونك! وإذا كنت لا أزال على قيد الحياة فيعلم الله أنني سوف أنصرك في تحقيق النصر لقضيته»⁽⁶⁾.

هذا الكلام أدهش النبي ﷺ فقال: «أو مخرجي هم؟» وحذره ورقة قائلاً: «نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا أودي واعتبر عدواً»⁽⁷⁾.

كانت مهمة النبي ﷺ قد بدأت للتو، وقد سمح له الآن إدراك بعض أسس الوحي الأخير فضلاً عن بعض الحقائق التي كانت موجودة عبر تاريخ النبوات لدى الشعوب.

الإيمان والعلم والتواضع

استرعت الآيات الأولى التي نزلت على النبي ﷺ، الذي لم يكن يقرأ ولا يكتب - استرعت انتباهه مباشرة إلى العلم، ومع أنه لا يعرف القراءة عند الاعتماد على استعداداته الطبيعية، فقد دعاه الله ليقرأ «باسم ربك»، حيث ربط مباشرة بين الإيمان بالله والعلم، لأن الآيات اللاحقة تؤكد هذه العلاقة: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۖ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾⁽⁸⁾ بين الخالق والخلق يوجد إيمان يعتمد على المعرفة الممنوحة للبشر من قبل الرب الأكرم ليتيح لهم الاستجابة لدعوته واللجوء إليه، تنشئ الآيات الأولى تقابلاً فورياً مع ما سيورده الوحي لاحقاً عن خلق البشر: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾⁽⁸⁾. سوف يمنح العقل والذكاء واللغة والكتابة الناس الصفات اللازمة لتمكينهم من أن يكونوا خلفاء الله في الأرض، ومنذ البداية، قرن الوحي القرآني معرفة الله بالمعرفة والعلم، مردداً بذلك صدى أصل الخلق ذاته⁽⁹⁾.

جاء في عدة أحاديث أن نزول الوحي الثاني يقابل بداية سور القلم، تلك الآيات أكدت المصدر الإلهي لهذا الإمام فضلاً عن ضرورة المعرفة

والعلم، كما أنها ذكرت أخلاق الرسول ﷺ المتفردة التي شهدت عليها السنوات الأربعون الأولى من حياته.

﴿ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَا أَنْتَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ ۝٦﴾ (10).

نون هي إحدى الأحرف الهجائية في اللغة العربية، ويوجد بالطريقة نفسها حروف أخرى تبدأ بها بعض سور القرآن، في حين أنه ما من مفسر - ولا حتى النبي ذاته - قادر على أن يحدد بالضبط ما تعنيه هذه الحروف أو ما يرمز إليه وجودها في بداية بعض السور، وهكذا في اللحظة ذاتها التي يقسم فيها الخالق «بالقلم» ويؤكد ضرورة العلم الذي أتيح للبشر، يفتح الله الآيات بحرف النون الذي تكتنفه الأسرار، معبراً بذلك عن محدودية المعرفة البشرية. إن كرامة البشرية، التي منحها لها المعرفة، لا يمكن أن تخلو من تواضع العقل الذي يدرك حدوده ويدرك بذلك ضرورة الإيمان، إن قبول عدم فهم الأسرار التي ينطوي عليها وجود حرف النون يقتضي الإيمان، إن فهم وقبول النصوص التي لا تكتنفها الأسرار للآيات التي تلي فإن ذلك يقتضي استخدام عقل نشط لكنه بالضرورة - بل بالطبع - عقل له حدود.

الإيمان والأخلاق والاضطهاد

تضيف سورة القلم إلى التعليم الأساسي للإسلام - الذي مفاده أن العلم لا يوجد إلا بإدراك البشر لمحدوديته - بعداً آخر عندما تتحدث عن

«الخلق العظيم» للنبي ﷺ. إن هذه السورة التي تذكرنا بما عرفناه سابقاً عن سلوك النبي ﷺ النبيل بشكل استثنائي منذ ولادته تقيم صلة محددة بين العلم والإيمان والعمل، ففي ضوء الإيمان، يجب أن يكون العلم مبنياً على أساس كرامة الفرد الأخلاقية ومعتمداً عليها؛ وفي الواقع، فإن نبل سلوك النبي ﷺ هو الذي يؤكد له -استنتاجياً- بأنه ليس به مس من الشيطان وأنه على الحق وأن أجره سيكون لا نهاية له، يجب أن يكون للإيمان بالله وللعلم -من منطلق التعاليم الإلهية، كنتيجة فورية- سلوكاً وطريقة في التصرف، تحترم ما هو أخلاقي وتعزز ما هو خير.

تلك الآيات تنطوي على درس آخر، تنبأ به ورقة بن نوفل والراهب بحيرى قبله: سوف يتعرض النبي ﷺ للإهانات والشدائد والحقد بل وحتى النفي من جانب أهله، وقد تم تحذير النبي ﷺ بأنه سوف يكذب لا محالة، غير أنه في الوقت الراهن، بعد أول الوحي الذي نزل عليه، كان عليه مواجهة شكوكه هو: لقد طمأنته زوجته وبعدها جاء تأكيد ورقة بن نوفل، لكنه لم يتلق أي شيء من الملك جبريل لطمأنته تامة، في بعض الأحيان، وفي أثناء سير النبي ﷺ، كان يرى صورة جبريل تملأ الأفق، فإذا أشاح بوجهه عنها ظل جبريل يطالعه.

لا توجد معطيات دقيقة عن عدد المرات التي جاء فيها الوحي للنبي خلال هذه المرحلة الأولى، لكن عائشة - رضي الله عنها - تروي بأن النبي ﷺ قال في أحد الأيام إنه سمع صوتاً وفجأة «ظهر لي الملك الذي جاء في غار حراء، وهو جالس بين السماء والأرض، فانتابني الخوف وكما حدث في أول الوحي فهرعت إلى البيت وقلت: «دثروني! دثروني!» ففعلوا⁽¹¹⁾.

حدث ذلك وعندها نزلت هذه الآيات: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنْذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥﴾ (12).

في كل نزول للوحي في المرحلة الأولى، كان الله يصف نفسه لرسوله بأنه «ربه»، الذي اصطفاه وأدبه ودعاه إلى حمل التنزيل الأخير الصادر عن الواحد الأحد، فلم يكن عبثاً أن محمداً ﷺ قد تعرض لليتم والفقر وأنه انخرط في حقبة من التأمل، رغم أنه في تلك اللحظة كان القلق والجزع يغشيان إدراكه بأنه تم اصطفاؤه وإسناد الرسالة إليه.

الصمت والشك

ثم ازداد الوضع سوءاً؛ لأن الوحي توقف خلال الأشهر التالية، هذه الفترة التي استمرت بين ستة شهور وسنتين ونصف السنة، حسب الحديث المروي، أثارت في نفس النبي ﷺ شكاً وألماً كبيرين، فقد ظن أنه لم يعد أهلاً لتلقي الوحي، وأن ربه قلاه، أو أن ما حدث له هو مجرد سحر، وقد روت عائشة - رضي الله عنها - شدة ألمه:

انقطع الوحي مدة حتى حزن النبي ﷺ حزناً غداً منه مراراً كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل كي يلقي منه نفسه، تبدى له جبريل فقال: «يا محمد! إنك رسول الله حقاً»، فيسكن لذلك جأشه وتقر نفسه (13).

كان لظهور جبريل والدلالات المحيطة بالنبي ﷺ أبلغ الأثر في مساعدته على مقاومة مشاعر الشك والعزلة. لقد كان في الواقع يتعرض لما تعرض

له إبراهيم عليه السلام: ففي محنة هذا الصمت، أخذ يشك بنفسه، وقدراته وقوته، لكن الله كان دائماً يضع في طريقه دلالات ورؤى حالت دونه والشك بالله، كان اختبار انقطاع الوحي استهلاً لحد سير الرسول ﷺ في مسعاه الروحي، فقد أنباه الوحي عن ضرورة التواضع، لكن مدة انقطاع الوحي كان يعلمه إياه الآن بشكل عملي. لقد كشف الله له عن وجوده وخلال تلك الأسابيع الطويلة التي خلت من كلمته، كان يعزز الحاجة إليه في قلب رسوله، وأخيراً أوحى الله إليه ثانية، مستدعياً ضحى النهار وسجى الليل من أجل حقيقتيهما المادية، وهي دلالة على قدرة الخالق، بقدر ما هما من أجل رمزيتهما، التي تعبر عن هشاشة الحياة والقلب بين نور الوحي الصاعد وفراغ الصمت المظلم:

﴿وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَافَى (٣) وَلَآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَرَضَى (٥)﴾ (14)

كانت تلك أخباراً سارة، ولم يعد الوحي يتوقف ثانية طيلة ما يزيد عن عشرين سنة.

خديجة (رضي الله عنها)

من الأهمية بمكان التأكيد هنا على الدور الذي قامت به خديجة - رضي الله عنها - طيلة تلك السنوات الحافلة بالأحداث، بعضها خارق للعادة، وأخرى شديدة الإيلام. كانت هي التي لاحظت أولاً، ثم اختارت، محمداً ﷺ لصدقه وإنصافه ونبل أخلاقه، وبما أن الكثيرين من مكة كانوا يخطبون ودّها بسبب ثروتها، فقد كان باستطاعتها تقدير موقف

التعفف والتحفظ من ذلك الشاب الذي كان مع ذلك مقداماً وبارعاً إلى درجة كبيرة. وخلافاً لما هو متعارف عليه، فقد كان لديها من الشجاعة ما جعلها تطرح عليه مشروع الزواج من خلال صديقتها نفيسة، وكان لزوجهما أن يجلب لهما نصيبهما من السعادة والحزن والأسى: فقد فقدوا ابنيهما، القاسم وعبد الله، في مرحلة الطفولة، ولم تبقى على قيد الحياة سوى بناتهما الأربع⁽¹⁵⁾. كان قدر هذه الأسرة صعباً بما فيه الكفاية، لكن لدى العرب، كانت ولادة البنت تُعدُّ عاراً، وجاء في الأثر أن محمداً ﷺ كان، على العكس من ذلك، يحيط بناته هو وزوجته بالحب الشديد والرعاية المتواصلة، التي لم يتردداً أبداً في التعبير عنها في العلن.

عندما نزل الوحي على محمد ﷺ للمرة الأولى وهو في سن الأربعين، التجأ إلى زوجته على الفور، وكانت أول من وقف إلى جانبه وهدأ من روعه، وكانت زوجته، خلال السنوات السابقة كلها، تشاهد رجلاً تميزت شخصيته بالنبل. وعندما عاد إليها من غار حراء، وقد انتابه الاضطراب واجتاحه الشك بشأن ما كان عليه وما كان يحدث له، أحاطته بمحبتها وذكرته بصفاته الحميدة وأعادت له ثقته بنفسه، كانت أحداث الوحي الأولى إنعاماً خارقاً واختباراً مريعاً لرجل لم يعد يعرف إن كان به مس أو إن كان فريسة لحمى هذيان شيطاني. كان وحيداً ومشوشاً، فلجأ إلى زوجته، فوقف الاثنان معاً يواجهان الاختبار، ويحاولان فهم معناه، ثم بعد انتهاء فترة انقطاع الوحي، استجابا لدعوة الله وسارا على طريق الانخراط الروحي، في هذا الصدد، كانت خديجة - رضي الله عنها - دليلاً على وجود الله في قلب اختبار محمد ﷺ. وكانت من حيث تجربة محمد ﷺ الروحية

ما كانت عليه هاجر من حيث تجربة إبراهيم عليه السلام. كانت كلتاها والابن العلامات التي أرسلها الواحد الآخر لإظهار وجوده ودعمه في اختبارهما، بحيث لا يشكان به أبداً، كانت خديجة - رضي الله عنها - أول من اعتنق الإسلام، وظلت طيلة السنوات العشر من بعثة محمد صلى الله عليه وسلم تقف إلى جانبه، رفيقة مخلص لا تخذله أبداً، لقد كان دور المرأة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم كبيراً واسع النطاق، وقد ظلت خديجة - رضي الله عنها - طيلة خمس وعشرين سنة، زوجته الوحيدة، كان وجودها وحده حماية للنبي صلى الله عليه وسلم لكنها تعرضت معه إلى الرفض من أهله وإلى الاضطهاد والعزلة ⁽¹⁶⁾. كان حبه لها بالغ الشأن، وكان ذلك واضحاً إلى حد أنه بعد وفاة خديجة - رضي الله عنها - بعدة سنوات، قالت عائشة - رضي الله عنها - التي تزوجت النبي صلى الله عليه وسلم لاحقاً - كانت خديجة - رضي الله عنها - المرأة الوحيدة على الإطلاق التي كانت تشعر بالغيرة منها، لقد استقبلت خديجة - رضي الله عنها - النبأ الطيب لاختيار الله له، كانت امرأة مستقلة، وقورة وتحظى بالاحترام، ثم هي زوجة قوية ونبيهة وصادقة وواثقة من نفسها، كانت تقية، مخلص، ذات تصميم وتحلى بالصبر، وهكذا فإن محمداً صلى الله عليه وسلم آخر أنبياء الواحد الأحد، لم يكن وحيداً، وكان من أوضح علامات فضل الله عليه ومحبته له وجود امرأة في حياته، زوجته.

وحي وحقائق وكتاب

لقد تجلى الله من خلال الوحي، وقد وجهت مناسبات الوحي وعي النبي صلى الله عليه وسلم إلى وجود الله الأسمى وتربيته، إذ إنه كان دائماً يخاطب بأنه «ربك».

وكان جبريل قد نقل الأسس الأولى للرسالة ولمعرفة الله - جوهر الإيمان - وعبر في الوقت نفسه عن مركزية العلم (القراءة والكتابة) المقترنة بالسلوك الفاضل، وكان الإعلان عن البشائر الطيبة يقترن بتحذير بشأن معارضة الآخرين القادمة لمحمد ﷺ، ذلك لأنه لم يأت رجل حق إلى الأرض إلا عودي وكُذِّب وأثيرت حوله الأكاذيب، حتى من بعض أقاربه، الذين كانوا يحبونه، أصبحوا يكرهونه إلى درجة أنهم كانوا يريدون قتله.

لقد ظهر جبريل له مرات متعددة، وقد روى النبي ﷺ لاحقاً أن الملك كان يظهر له في بعض الأحيان على هيئة الملائكية وفي أحيان أخرى على شكل بشر، وفي أوقات أخرى، كان محمد ﷺ يسمع صوتاً مثل قرع الأجراس ويأتيه الوحي بشكل مفاجئ ويقتضي منه تركيزاً بالغاً لدرجة الاختناق، كان هذا النمط الأخير مؤلماً جداً رغم أنه كان في نهاية الوحي يستطيع إعادة محتوى الوحي الذي أنزل عليه كلمة كلمة⁽¹⁷⁾. وقد كان جبريل يصحبه طيلة عشرين سنة ويكشف له، بشكل غير مطرد ووفق مقتضيات الموقف، الآيات والسور التي كان من شأنها أن تكون القرآن في خاتمة المطاف، لم يتم ترتيب الوحي وفق التسلسل التاريخي في المصحف الذي كان يتخذ شكله الراهن، بل تم ترتيبها وفق ما كان جبريل يوجه به النبي ﷺ في كل مرة وكان النبي ﷺ يستجيب إلى توجيهه بشكل دقيق. وكان النبي ﷺ، كل سنة، في شهر رمضان، يتلو أمام جبريل كل ما كان قد أنزل عليه من قرآن حتى ذلك الوقت، وفق الترتيب الذي حدده الملك، وبهذه الطريقة نُفِّذ تحقيق منهجي لمحتوى الكتاب وشكله والذي كان يتكون تدريجاً عبر خمس وعشرين سنة.